الأدب في سير أعلامه :

ملـــتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للاستاذ محمود الخفيف

— ١٨ —

هربرت على القساوسة :

وأردف ملتن هذا الكتيب بكتيب ثان في يوليو سنة ١٦٤١ رد به على (أشر) أحد كبار الأساقفة ، وكان كتيبه الثاني صغيراً ، وقد عد رده على هذا الأسقف جرأة عظيمة ومبالغة منه في الثقة بنفسه ؛ وذلك أن أشر كان من أوسع الأساقفة أفقاً في تاريخ الكنيسة ومسائلها ؛ قضى نحو ثمانية عشر عاماً من عمره في هذه الدراسة حتى أصبح من أفذاذ طائفته . وقد جادله ملتن جدالا عنيفاً ، ولجأ إلى المنطق في مجادلته . ومن أمثلة ذلك قوله « ترجع الأسقفية إما إلى أصل إنساني أو إلى أصل إلهي ، فان كانت الأولى جاز القضاء أو الإبقاء عليها حسبما توحي المصلحة ، وإن كانت الثانية وجب أن يقوم الدليل على ذلك من الكتاب المقدس ، فانه إن لم يقم هذا الدليل فلن يكون لأي تأكيد إنساني لها أية قيمة يعول عليها » ، وبعد أن يعجز ملتن خصمه بمطالبته بهذا الدليل يستعرض ما اعتمد عليه من المراجع فيسفهها ويسخر منها في لغة هي أقرب إلى السباب منها إلى النقد ، ولن يخشى ملتن أن يسجل في كتيبه احتقاره لآباء الكنيسة القدامى وزرايته عليهم وعلى كل من يخالفه سواهم فيما يذهب إليه مهما يكن من خطره أو سلطانه ...

ولم يلبث أن أعقب في السنة نفسها كتيبه الثاني بثالث ؛ وذلك أن (هول) رد على جماعة سمكتنسي بكتيب جديد يدافع به عن كتيبه الذي سماه الإعلان المتواضع . فانبرى له ملتن وراح يسخر منه ما وسعته السخرية ، وجرى في ذلك على طريقة عجيبة ، فهو يورد رأياً من آراء هول ويسوقه مساق التحدي في صيغة سؤال أو اعتراض ثم يجيب عليه متهكماً ساخراً حتى لا يتورع أن يرد على أحد الاعتراضات بضحكات يثبت صورتها هكذا ... ها! ها! ها! على نحو ما يفعل الطلاب إذ يتجادلون في أمر من الأمور .

ولم يستطع ملتن أن يملك زمام قلمه إذ كان يرد على أحد المتحمسين من الفئة التي يبغضها ويحاربها في عنف بالغ ، لذلك جاء من عبارات الهجاء والفحش بما نعجب كيف يصدر مثله ممن كان له مثل ثقافته وأدبه ونفسه الشاعرة وحسه المرهف ، وتلك في الحق عجيبة من عجائب عقله وخلقه ...

وفي مستهل سنة ١٦٤٢ نشر ملتن كتيباً رابعاً ، وجمع في هذا الكتيب كل ما واتته به ثقافته ودراسته من المعرفة وكل ما جادت به قريحته من الآراء وساقها جميعاً حرباً على خصومه القساوسة ، وكان في هذا الكتيب أكثر عناية بالشرح والاقناع منه بالسخرية والاقذاع ، لذلك جاء خلواً من الحشو بريئاً من هجر القول وإن لم تكن لهجته فيه أقل حماسة منها في سالفيه ، ولهذا الكتيب الرابع أهمية من ناحية أخرى ، وذلك أن ملتن أبان فيه بعض آرائه في الدين والسياسة .

ففي الدين أعلن تمسكه بالبرسبيتيرية وأنها خير نظام لإدارة الكنيسة ، فلا يصح أن يترك لهؤلاء القساوسة الإشراف على الكنيسة فيرتفع بعضهم فوق بعض درجات ، ويتخذوا من مناصبهم الدينية سلاحاً للعدوان والطغيان والجشع ، وإنما يجب أن يكون المشرفون على إدارتها قوم يرضى عنهم الناس ويختارون بمشيئتهم ويكونون في مناصبهم سواء ، وهو في ذلك إنما يشير باتباع نظام كلفن في حماسة وإخلاص .

وذكر أحد القساوسة في هذه المعركة أن آدم هو أول قس ، فكان مما رد به ملتن على ذلك قوله : إنه إزاء ما يراه من شدة ولوعهم بالقديم في الدفاع عن قضيتهم يوافقهم فيما يزعمونه ، بل إنه يذهب في القدم إلى أبعد مما ذهبوا ؛ فاذا كان آدم في البشر هو أول قس ، فقد كان إبليس من قبل آدم هو في الملائكة القس الأول . ويخرج ملتن من ذلك بنتيجة وهي أن القساوسة في أصلهم ينتمون إلى الشيطان ، فحسبنا من بعض هذا النظام أنه من عمل الشيطان .

ويؤمن ملتن بعقيدة الثالوث على الرغم من فكرته السامية التي تجلت في إنكاره تصوير الله وتحديده ويصلي مستفيداً بهذا الثالوث كشأن من يؤمن بهذه العقيدة في أيامنا .

ويميل ملتن إلى الاعتدال والتسامح فى معاملة أهل المذاهب الأخرى من غير البيوريتانز ، فوجود هؤلاء المخالفين أمر طبيعى لأن هؤلاء يعدون قبل الإصلاح الجديد كالآلام الشديدة التى تسبق كل وضع ؛ وما من شىء يتغير من حال إلى حال فى عالم المادة إلا بمراكمة مع العناصر الأخرى المضادة له ، وفى المصنوعات لا بد من ذهاب بعض المادة فى التسوية والتهذيب ، وما من تمثال من المرمر يقام أو من صرح يبنى إلا إذا أزيل كذلك شىء مما علق به .

ولا يسع ملتن إلا الموافقة على عقوبة الطرد من الكنيسة ولكن على ألا يستعمل هذا الحق إلا بمنتهى الحذر وبعد التحرى الدقيق وطول الأناة والوثوق من أن المذنب يستحق تلك العقوبة .

ولا يزال ملتن فى كتيبه هذا موالياً للملكية ، وغاية مايسعى إليه أن يتخلص الملك وأن تتخلص انجلترة من طغيان القساوسة . وفى رأيه أن القساوسة هم الذين يوحون إلى الملك الطغيان والاستبداد ، لأنهم بتعصبهم وحرصهم على مناصبهم ومغانمهم يكرهون كل رأى حر ، ومتى لمحوا رأياً حراً رأوا فيه نذر الفتنة وخوفوا الناس من عواقبه وأشفقوا على النظام والهدوء من الفوضى المزعومة ، هذا إلى دسائسهم وسوء مكرهم وافترائهم الكذب على من يخشونه من الناس ؛ وإنه ليرى فيهم بذلك وبغيره أصلح أداة للطغيان . ولقد اعتادت الكنيسة أن تتخذ من الكتاب المقدس سلاحا تشهره فى وجه الحرية ، ووسيلة إلى الجشع الذى لا يشبع والطموح الذى لا يقف عند حد .

وجاء فى كتيبه هذا فيما جاء من آرائه طعن شديد على الجامعات ؛ فما إن يزال ملتن حانقاً على الجامعة وأسلوب التعليم بها بعد أن تركها بعشر سنوات ؛ وجاء رأيه عن الجامعات عرضاً فهو يعجب كيف أن أناساً علم من أمرهم أنهم أهل ثقافة وعلم يدافعون عن الكنيسة بكتاباتهم ؛ ويرد ذلك إلى أنهم اكتسبوا ما يسمونه علماً فى الجامعات ، فقد قصدوا إليها يبتغون المعرفة الصحيحة ، ولكنهم لم يجدوا هناك إلا ألوانا من السفسطة وضروباً من تعاليم القساوسة سدت بها حلوقهم فعاقت دخول الفلسفة الصحيحة ، كما حنق أصواتهم إلى الأبد ما امتلأت به حناجرهم من لغو ميتافزيق ...

وفى سنة ١٦٤٢ نشر القس هول وابنه كتيباً عنيف اللهجة تأتى المجلدات وجها فيه إلى ملتن مطاعن شديدة تناولت فيها تناولت شخصه ومسلكه إبان طلبه العلم بالجامعة ، وكأنما أرادا أن يحارباه بسلاح من أسلحته لكى يذيقاه مرارة المطاعن الشخصية . والحق أنهما أوجعاه وملآ قلبه بكتيبهما هذا غيظاً شديداً وحنقا ولاسيما أنهما افتريا عليه ماليس من خلقه ونسبا إليه ما هو نقيض ما عرف عنه من استقامة وطهر وعفة حرص عليها أشد الحرص سراً وعلانية حتى باتت من أبرز صفاته وأخصها ...

اتهمه هول وابنه أنه لسوء مسلكه فى الجامعة قد لفظته كما تلفظ الحلوق القىء ، فذهب إلى منعزل على مقربة من لندن حيث كان يقضى نهاره فى الفسوق والفجور وليله فى أماكن ومواخير الفساد ، وحيث راح يغازل أرملة غنية بغية الزواج بها .

ورد ملتن بكتيب كان خامس هاتيك الكتيبات فذكر أنه ما كان ليعبأ بما يقولان لولا أنه لصلته بجماعة سمكتمنسى ولإخلاصه لواجبه فى القضية التى هو بصددها يحرص على أن يطهر اسمه مما حاولا أن يلصقا به ، ومهد بهذا لحديث طويل عن نفسه يعد تاريخاً لحياته حتى ذلك الوقت ...

نفى عن نفسه أن الجامعة لفظته ، فها هو ذا يحمل شهادة من أكبر شهاداتها ، ولقد كان هناك كما يعرف أهلها جميعاً موضع التوقير والمحبة ، وكان يقضى أصباحه فى قراءة أعظم المؤلفين وفى تقوية بدنه بالرياضة ، أما أمساؤه فلم يعرف فيها فجوراً ولا لهواً اللهم إلا ما كان يشاهده من تمثيل مسرحيات الكلاسية فى كمبردج إن كان يعد هذا من الفجور .

ويشير ملتن إلى عزلته بعد أن ترك الكلية وإلى دراساته التى أخذ نفسه بها فى غير رفق ، هنالك حيث قرأ فيمن قرأ أفلاطون وندد زينوفون قراءة درس وتمحيص و « حيث أعنى إذا تكلمت عما علمته من الحكمة والحب الجانب الحق منهما ، ذلك الجانب الذى ليس غير الفضيلة كأسه الساحرة التى يطاف بها على من يستحقونها فحسب . أما الذين لا يستحقونها فتطوف عليهم شيطانة نزلت باسم الحب وأهانته بكأس مزاجها شراب مسكر ثقيل ؛ وتعلمت كيف تبدأ فى النفس وكيف تنتهى فيها أولى غايات الحب وأهمها فتلك توأميها السعيدين : العلم والفضيلة .

ويعد ملتن قارئيه أنه سوف يتكلم عن الحب الصحيح أكثر مما تكلم وذلك « فى وقت هادئ لا شتائم فيه ، لا فى هذه الجلبة القاتمة إذ ينبح الخصوم بالباب كما تعلمون » .

ويعود إلى حيث انتهى فيقول : « إن من يحب ألا يخلق

دونه الأمل فى أن يكتب مايعظم وقعه فى النفس فعليه أن يكون هو نفسه قصيدة صحيحة ، أعنى مزيجاً من أجل الأشياء وأشرفها بهذه الفكرة يصحبها جمال فى طبيعتى وكبرياء شريفة فى نفسى ونظرة منى سامية إلى ذاتى سواء فيما سلف من حياتى وفيما استقبل منها ؛ بهذا كله لا أزال أعلو على ذلك التدهور العقلى الذى لا بد أن ينحط إلى أسفل منه من تقر نفسه الفسوق والفحشاء » .

ويقول إنه قد تعلم كسبحى أن فقدان العفة فى الرجل وهو أكمل الزوجين خلقاً وهو سررة الله ومجده ، أكثر عيباً منه فى المرأة التى هى مجد الرجل خلقاً ؛ وأن فى الجنة ألحاناً قدسية لن يفهمها إلا من لم يدنس بالنساء بدنه . وتطرق من هذا إلى قوله إنه كعاقل يفضل أن يتزوج بعذراء فقيرة على أن يتزوج بأرملة غنية .

وينتقل ملتن بعد الدفاع إلى الهجوم ، فيعود إلى التنديد بالأساقفة وجمود عواطفهم وتعصبهم وجهلهم وحماقتهم على نحو لا يسهل معه أن نقول أيهم كان أفدع لفظاً وأفحش هجواً : ملتن أم خصمه هول .

بهذا الكتيب الخامس تنتهى الحرب بين ملتن والقساوسة ، وهى جانب من جوانب دفاعه عن الحرية ، وهو هنا إنما يدافع عنها أمام التعصب الفكرى الذى هو من أشد أعدائها خطراً عليها .

ولا بد من نظرة إجمالية فى هذه الكتيبات الخمسة بعد أن بينا موضوع كل كتيب منها والدافع الذى حمل ملتن على كتابته .

يخطئ من ينظر إلى هذه الكتيبات على أنها عمل أدبى ، فما كانت فى الواقع إلا حرباً قوامها الحماسة والعنف ، لا يعنى صاحبها إلا أن يصيب فيصمى ، أو يضرب فيهزم ، وشتان بين هذا وبين العمل الأدبى الذى يقيمه صاحبه على أساس من الفن وتكون قوامه فكرة إيجابية فيبنى كما يهدم ويتبين ما يأخذ مما يدع ، ويتفنن فى إبداع الصورة وفى اختيار اللفظ وإحكام النسج لكى يجمع بين وضوح الفكرة وجمال الأداء .

لهذا كان يجمع ملتن فى كتيباته هذه بين السمو والإسفاف والبلاغة والركاكة والجودة والقذارة ، والحجة الناصعة والشتائم المقذعة ، والفلسفة الرصينة والتفاهة المشينة ، والغرض النبيل والطعن الشخصى الوبيل ، لا يعنيه إلا أن يؤلم ويوجع ويشفى سخيمة صدره ، وأن يكون من وراء كتيباته أثر عميق فى أذهان الناس وثقوبهم وضجيج شديد يتجاوب العصر صداه . ولقد نجح فيما أراد نجاحاً كبيراً فهز نفوس قومه هزاً قوياً وزلزل القساوسة زلزالا شديداً .

وكان أسلوب ملتن فى الجملة أسلوب الشاعر العظيم إذا كتب على غير أصالة منه فى النثر ، لذلك كان يأتى بكثير من الصور والأخيلة الشعرية فى مجازاته وتشبيهاته واستعاراته ويستغرق فى المحسنات اللفظية ما وسعه الاستغراق ، كما كان يعمد إلى الميثولوجيا أحياناً فيخيل إليك من بعض فقراته أنك تلقاء شعر لا ينقصه إلا الوزن والقافية ، على أنك تقع بين الفينة والفينة على صفحات له يشرف بها على الغاية من بلاغة العبارة وإشراق اللفظ ومتانة السياق وبراعة الاتزان بين الجمل والاتساق .

أما آراؤه التى أوردها فيها وإن لم يقصد إلى ذلك فترينا أنه كان حتى ذلك الوقت مؤمناً بعقيدة الثالوث فى أصالتها وإن كان برسبتيرياً من حيث إدارة الكنيسة ، بيوريتانياً من حيث المذهب مع شىء غير قليل من الاعتدال ، ملكياً من حيث السياسة ، كما ترينا أن أقوى عواطفه يومئذ كانت عاطفة الدفاع عن الحرية وشدة محبته إياها ...

على أن حبه الشديد للحرية سينتهى به فيما سنرى من تطور فكره إلى انطلاقه من تلك الآراء جميعاً ، فينفر من عقيدة الثالوث ومن مثيلاتها من العقائد لأنها تستند إلى العقل ولا تتفق مع ما يحب من حرية الفكر ، وينفر من البرسبتيرية لأنها نظام جامد لا تسلم له أن يعيش ويفكر كما يرى ، وينفر من الملكية لأنها سوف تقيم الدليل فى السنوات المقبلة على تمسكها بالاستبداد وكراهتها روح الحرية .

ولقد كانت هذه الكتيبات آخر ما كتب وقلبه عامر بالأمن ونفسه متطلعة إلى النصر ، فلسوف تنهار الآمال واحداً بعد واحد ؛ فيتزوج بعذراء فيجد الصدمة الأولى لآرائه وكبريائه فى هذا الزواج ويكون من أشد ما يمكر عليه مستقبل حياته ؛ وتظهر له البرسبتيرية وليست أقل تعصباً وحماقة من الأسقفية ؛ ويلتفت باحثاً عن الحرية فلا تنزل من السماء كما أمل واستبشر لتجعل من انجلترة مدينة الله على الأرض ، ويقلب الشاعر كفيه فى حسرة ويبتئس قلبه الكبير وتنكدر روحه العظيمة فيفقد الثقة فى الأرض ومن عليها ويتجه ببصره صوب السماء ، ويلتمس فى التغنى بألحان فردوسه العزاء .

(يتبع)

الحصيف